الخليج

الرأي, مقالات

23 يناير 2020 03:32 صباحا

عقدة البوسفور

الكاتب

جميل مطر

جميل مطر

معظمنا، وتركيا منا، نصنع وننفذ سياساتنا الخارجية على مبادئ النهج الترامبي، أقصد النهج الجديد لمبادئ السياسة الخارجية الأمريكية. أبالغ، وفي رأي البعض أتطاول حين أقرر أن نهج ترامب سوف يصمد خلال ولايته الثانية في حال فوزه في نوفمبر، ولكن أذهب إلى ما هو أبعد، فأتنبأ بصموده إلى عهود ما بعد نهاية ولايته الثانية. لا تهم النيات، يهمني بشكل خاص من مبادئ هذا النهج حال إجماع مختلف دول العالم على تنويع علاقاتها كأحد أهم المبادئ الترامبية في السياسة الخارجية. صارت منظومة علاقات الدولة تأخذ شكل مروحة اليد التي تحملها سيدات الشرق الأقصى، ونقلها الغرب عنهن. وكما أنني لا أذكر أنني قابلت سيدة يابانية أو من أصل صيني في حفل خاص إلا وكانت المروحة جزءاً متكاملاً مع طاقم زينتها، فأنا أيضاً لا أكاد أرى حاكماً لا يتمسك هذه الأيام بمنظومة سياسته الخارجية القائمة على تنويع العلاقات، متباهياً أحياناً ومحتمياً بها دائماً ومؤتمناً إياها على أمن بلاده ونظامه.

لن نختلف كثيراً حول الاعتراف بأن تركيا صارت تزعج أجهزة كثيرة متخصصة في صنع القرار العسكري والسياسي في دول عديدة. لست قريباً جداً من أجهزة صنع القرار في مصر وفي دول عربية أخرى، ومع ذلك أعرف بالملاحظة والخبرة الطويلة أن عدداً من ممارسات تركيا في المنطقة العربية وخارجها صار يمثل مصدر إزعاج شديد لهذه الأجهزة. أعرف أيضاً بالملاحظة، على الأقل، أن تركيا اشتهرت منذ فترة غير قصيرة بأنها الدولة التي استطاعت بعنادها أن تصبح أحد أهم مصادر الإزعاج والتوتر بالنسبة لصناع السياسة الخارجية في الولايات المتحدة والاتحاد الروسي ودول أوروبية كثيرة.

أجاد أردوغان اللعب بورقتين، لعلهما في علم الأوروبيين أهم أوراق اللعب التي يقدرهما أردوغان أيما تقدير. إحداهما ورثها أردوغان عن أسلافه من حكام تركيا الأتاتوركية والسلطة العثمانية، وثانيهما الموقع الجغرافي. هنا يمكن أن نقول: إن تركيا في ظل حكم أردوغان ومن سبقوه قدمت للغرب وما زالت تقدم له ـ من خلال احتلالها هذا الموقع ـ

خدمات لا تحصى، ولا يمكن أن يتجاهلها أو ينكرها. أذكر قارئ هذه السطور بأنه الغرب نفسه الذي لا يخفي كرهه لكل ما تمثله ومثلته تركيا في الماضي، يكرهها منذ خرجت جحافلها المسلمة تجتاح أوروبا المسيحية، وتدق أسوار بولندا وفرنسا، ثم تتوقف عند التلال المحيطة بالعاصمة النمساوية، هو الذي يحتاج الآن إلى وجود دولة قوية في شبه جزيرة الأناضول ليردع من على أرضها خطراً لا يغيب، خطر الزحف الروسي المتوقع دائماً أن يتقدم نحو الغرب ليحقق حلم أوراسيا، الحلم الذي كثيراً ما داعب خيال القياصرة ومن جاء بعدهم. زحف روسي آخر يزمع أن يتقدم نحو الجنوب حتى شواطئ البحار العربية الدافئة والغنية.

عاد الموقع بفضل أزمات كثيرة الورقة الأعظم في ترسانة القوة التركية. عاد بفضل أزمة اللاجئين من سوريا والعراق، حشود بالملايين جاهزة بإشارة واحدة من أردوغان للانطلاق نحو السهول الأوروبية الواسعة والمدن الغنية. عاد أيضاً بفضل أزمة الصواريخ الروسية وصفقة طائرات إف-35. هذه الأزمة خلفت معلومة ونصيحة. المعلومة مفادها أن الدب الروسي قابع منذ قرون في وضع الاستعداد للقفز، وتركيا أول ضحاياه، أما النصيحة، فجوهرها أن حلف الناتو لا يستغني عن تركيا، السدادة المحكمة لعنق البوسفور، وأن تركيا لن تستغني عن حلف الناتو الخادم المطيع غالباً.

كلاهما لا يستغني عن الآخر ولن يجد بديلاً له. لا أحد ينكر أنه بامتلاكه هذه الأرصدة ضمن أردوغان لتركيا دخولاً في سوريا، ودحراً للأكراد ونزولاً في ليبيا بصخب مكتوم وتكلفة بسيطة. أتوقع أن تنجب الجامعات يوماً مؤرخاً ينسب كل نصر قادم يحققه أردوغان للورقة الأهم في مخزون أرصدة تركيا، وهي دخوله سوريا وإخضاعها لإرادة تركيا. ففي سوريا ومن سوريا سوف يتشكل كالعادة مستقبل الإقليم.

يبقى الأمر غير المفهوم، وإن كنت بين الفاهمين بحكم تجربتي الطويلة مع العمل الجماعي العربي، أعتقد، وبكل الفهم الممكن، أن التاريخ أياً كانت نية وجنسية وعقيدة من يؤرخه، لن يمر مرور الكرام على المسؤولية المباشرة للنظام الإقليمي العربي عن تعاظم الدور التركي في المنطقة وفي العالم. المسألة ببساطة يوجزها الاعتراف بأن التقاعس المتعمد عن إقامة أمن جماعي عربي وتكامل اقتصادي عربي، وعن تسوية كافة النزاعات الناشبة بلا معنى أو هدف، وعن الانتباه إلى أن الشرق الأوسط الحالي ليس هو الإقليم الذي كان ولن يعود كما كان، وعن مواجهة الحقيقة المرة وهي أن دولاً ثلاثاً إقليمية صارت تهيمن قليلاً أو كثيراً، وتدفع بمصالح العرب بعيداً عن طموحاتهم وأهدافهم المشروعة. المسألة توجزها كل هذه النقائص ونواحي القصور، يوجزها أيضاً اقتناعي بأن روسيا، المهيمن الأكبر لسنوات قادمة، لن تهتم كثيراً بنصح وإرشاد من قرر بإرادته المطلقة أن يكون شريكاً أضعف.

"حقوق النشر محفوظة "لصحيفة الخليج .2024 ©